بسم الله الرحمن الرحيم

١٣ / ٧ / ١٤٤٧هـ

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾

الحمد لله...

مسكين هذا الإنسان، يظن أنه ببصره قد اكتشف كل شيء، وما علم أنه يعيش على شاطئٍ ضيّقٍ من الوجود.

مسكين هذا الإنسان عندما ظن أن ما يبلغه بصرُه هو كلُّ الحقيقة، وما غاب عن بصره ظنه كلَّ العدم.

إنّ في هذا الكون ما تقوم به الحياة ولا يراه الإنسان، وما يُدبَّر به الأمر ولا يُبصَر بالعيون، والبصر مهما اتّسع يظلّ قاصرًا، واليقين لا يُبنى على المشاهدة وحدها، بل على ما وراءها من غيبٍ يُدرَك بالعقل، ويُصدَّق بالوحي.

ومن هنا جاء القسم الإلهي: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾؛ قسمٌ يهزّ اليقين، ويرد على الملحدين، قسمٌ يُعلِمُ الإنسانَ أن عالمه أوسع من مجال نظره، وأن أعظم الحقائق، وأكبر المخلوقات، وأغرب سنن الوجود، إنما تقوم على ما لا يراه الإنسان، ولا بيصره كائن، فلنسبح في هذه الآية!

أعظم شيء لا يرى في الدنيا.

أعظمُ شيء لا يُرى في الدنيا، وأكبر موجود لا تبصرُه الأعين وهي على هذه الأرض، بل ما في الدنيا غيبٌ غاب عن الأعين أجلُّ قدرًا، ولا أسمى مكانة منه، إنه الله سبحانه! فهو في عليائه لا تراه الأبصار، لكن تراه القلوب بآثاره، وتشهد له العقول بحكمته، وتنقاد له الفِطَر بجلاله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

غاب عن العيون امتحانًا، وحضر في كل شيء برهانًا، فمن عرفه استغنى به عمّا سواه، ومن غفل عنه رأى الدنيا كلَّها ولم يرَ الحقيقة.

حتى نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير ربه في الدنيا، وعندما سئل هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه" [1]، فالبشر في الدنيا ضعاف البدن، لا تقوى أجسادهم أن يروا أعظم العظماء، ولا أكبر الكبراء، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حِجابُه النُّورُ، لو كَشَفَه لأحرقتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتَهى إليه

---

(١) رواه مسلم.

بَصَرُه من خَلقِه" [1]. لو أن الله تجلّى، لتلاشت الأكوان قبل أن تبلغ أطرافُ البصر مداها؛ فبصرُه سبحانه لا يُحاط بحدّ، ولا ينتهي إلى غاية، والوجودُ كلُّه قائمٌ بنوره، خاضعٌ لجلاله، وإنما سُبُحاتُ وجهه إشراقُ العظمة، وسَنا الجلال، ونورٌ لو لاح لاحترق به كلُّ ما سواه.

ولما قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فلم يتجل الله له؛ فموسى مخلوق من لحم ودم، ضعيف خلق من ضعف، وإنما تجلى الله للجبل الغليظ الأصم، فجعله دكا منهارًا مثل الرمل، انزعاجًا من رؤية الله، قال ابن عباس: "ما تجلى منه إلا قدر الخنصر"[2]، والنبيّ ﷺ لما قرأَ هذهِ الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ وقالَ هكذا-ووضعَ الإبهام على المفصلِ الأعلى منَ الخنصر- فساخَ الجبلُ[3]، فخرَّ موسى صَعِقًا، وسقطت قواه قبل جسده،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره.

(٣) رواه الترمذي، وأحمد، وإسناده على شرط مسلم.

وغابت عنه نفسه قبل بصره، إذ واجه الضعفُ البشريُّ أثرَ العظمة الإلهية، لم يكن الصعق فناءً، بل غيابًا تحت سلطان الهيبة، وإعلانًا أن القلب الإنساني لا يحتمل من نور الحق إلا ما أُذِن له.

لكنَّ الجنةَ لها شأنٌ آخر، وعطاءُ مُنْعِمٍ لا يُقاس بعطاء، وقد خُلِقَ أهلُها خلقًا جديدًا يليق بدوام النعيم وتمام الكرامة، هناك في الجنة حيث تُقوَّى الأبصار، وتُشرَح الصدور، وتتهيّأ الأرواح لما لم تكن تطيقه في دار الابتلاء؛ فإذا أُذِنَ برؤية الله، كانت رؤيةَ لطفٍ ورضا، لا صعقَ فيها ولا فناء، بل حياةٌ على حياة، ونورٌ فوق نور، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"(١).

خلق من خلق الله لا يراه إلا نبي.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ وهنالك خلق من خلق الله، ليسوا بشرًا فتألفهم العيون، ولا غيبًا مجرّدًا

---

(١) رواه مسلم.

يخلو من الأثر، حضورُهم صامت، وأفعالُهم نافذة، تمرّ بك ولا تشعر، وتُدبّر حولك الأمور وأنت لا تراهم، إنهم خَلْقٌ لو كُشِف سترُهم لارتعدت القلوب، سُخِّروا للأمر، وسكنوا عالمًا أعلى، إنهم الملائكة، لا يراهم إلا نبي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"خُلِقَتِ الملائكةُ من نُّورٍ" (١).

وليس الاتصالُ بالملائكة أمرًا هيّنًا، ولا رؤيتُهم شأنًا يُطاق لكلِّ أحد؛ فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سيّد الخلق، وأكملهم قوةً جسدًا ونفسًا، لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية، اعترته رهبةٌ عظيمة، ورجع إلى أهله يرتجف فؤاده من هول ما رأى.

ولما قال الكفار: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ قال سبحانه ردًّا عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، إذ إن الكافرين لا يرون الملائكة إلا في حالة واحدة! عند مفارقة الدنيا، أو نزولِ العذاب، ولو كُشف

---

(١) رواه مسلم.

لهم هذا الغيب في غير موضعه، لكان يومَ هلاكٍ لا يومَ هداية، فإذا جاء موت الكافر رأى الملائكة بما يُفزِع قلوبَهم ويقرع عقولَهم، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

خلق غائب مكلف، يجاورك لا تراه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

وهنالك خلق آخر من خلق الله لا يرى، ليس الحديث هنا عن نورٍ مطيعٍ لا يَعرِف العصيان، بل عن خَلْقٍ عجيب غريب، خُلِق في الأرض كما خُلِق الإنسان، يجري عليه التكليف، ويقع منه الإيمان والكفر، إنه عالمٌ خفيٌّ في الرؤية لا في الوجود، قريبٌ في السكنى بعيدٌ في الإدراك، قوامه السِّتر والتخفي، إنه عالم الجن، ورأسهم الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾، هم خُلِقوا على سترٍ لا تبلغه الأبصار، فإذا أبصَرَهم الإنسُ فإنما أبصروهم وقد لبسوا صورةً غير صورتهم، وتشكّلوا في هيئةٍ يُدركها الحسّ ولا تُفصِح عن الجوهر.

ولذلك جاء الأمر بالإنذار والتريّث فيما إذا رأى الإنسان حياتٍ أو عقاربٍ في البيوت، فقد يكون من عوامرٍ آمنت

وسكنت، وقد يكون شيطانًا تمرّد وتعدّى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ قَدْ أَسْلَمُوا فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلاثًا فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ" (١).

إذا، الجن لا يرون بصورهم الحقيقة، فالانشغال بتصوير الجنّ ونشر ما يُنسب إلى ذلك في بعض المواقع أمرٌ لا يُعوَّل عليه، ولا يُجزم بصحته، ولا سيما في زمنٍ كثرت فيه الخدع والتلاعب بالصور.

الساكن الخفي، برحيله يسكن الجسد.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾.

وهنالك خلق آخر من خلق الله لا يرى، ساكن آخر لا يبصره أحد، ولا يعلم كنهه نبي، لا تراه العيون، ولا تُمسكه الأيادي، ولا يحيط به وصف؛ ومع ذلك فهو سرُّ الحركة، ونبضُ الإحساس، وقِوامُ الحياة.

يجري فيك هذا المخلوق أمرًا إلهيًّا صامتًا، فإذا قمتَ قام، وإذا عزمتَ عَزَم، وإذا ابتسمتَ أشرق؛ وهو مع ذلك لا يُرى، ولكن آثاره يملأ الجسد حضورًا، إنه مخلوق الروح، وما أدراك

---

(١) رواه مسلم.

ما الروح؟ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إذا خرجتْ منك ومن جسدك-بلا ضجيج-تعطّلت الآلات، وخمدت القوى، وسكن الجسد كما تسكن الدار إذا فارقها ساكنها؛ جسدٌ كاملٌ بلا روح، وشكلٌ قائمٌ بلا حياة، ليعلم الإنسان أن أعظم ما فيه غيبٌ لا يُرى، وأن الحياة ليست بما يُبصَر، بل بما أُودِع في الصدر سرًّا.

روح نفخها الله في آدم فعطس [1]، روح نفخها الملك في الجنين فبكى، فإذا مشى على الأرض وهرم قبض الملك تلك الأمانة من أصابع الرجلين، معلنًا انتهاء الحكاية.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ"[2]، وهذا الحديث فيه إشارة أن الميت إذا مات أصبح بصره حديدًا، فيرى ما لا يرى في الدنيا، ومن ذلك أن أول شيء يراه من عالم البرزخ: روحُه، يرقبها أين تذهب.

ولذا لما مات أبو سلمه، وقد شَخَص بصرُهُ أغمض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له عينيه، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ألم تروا أن

---

(١)رواه الترمذي مرفوعًا: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ".

(٢) رواه مسلم.

الإنسان إذا مات شخص بصرُه"، قالوا :بلى، قال :"فذلك حين يتبع بصرُه نَفْسَه"[1].

خلق وراء سترٍ لا يُخرَق؟!

ويبقى ما لا تُبصره الأبصار أكثرَ وأعظمَ مما أُشير إليه في هذه الخطبة؛ فالغيب بحرٌ لا تُحيط به الشواطئ!

وكلما ظنّ الإنسان أنه بلغ الغاية انكشف له من القصور ما يردّه إلى حجمه الحقيقي.

أفلا يرى في أعماق البحار والمحيطات كيف تتراكب الظلمات، وكيف تقوم عوالم كاملة في قاعٍ لم تطأه قدم، ولم تبلغه عين، ومع ذلك فهو حقٌّ ثابتٌ قائم؟ فكيف بما غاب عن الإدراك أصلًا، لا لقصور المكان، بل لقصور الإنسان؟

ثم يتعاظم بعض البشر، ويزعم أنه اكتشف الأرض كلَّها، وكشف أسرارها برمتها، فأين يأجوج ومأجوج عن بصره؟

ذلك الخلق العظيم الذي أخبر الله عنهم، وهم أكثر من البشر بأضعافٍ مضاعفة، ومع ذلك ما زالوا وراء سترٍ لا يُخرَق؟!

فتبارك الله العظيم، الذي وسِع علمُه ما يُرى وما لا يُرى،

---

(١) رواه مسلم.

وضاق عقل الإنسان عن الإحاطة إلا بما أُذِن له؛ ليبقى التواضعُ أولَ أبواب المعرفة، والإيمانُ بالغيب أصلَ كلِّ يقين.

وكُتِبَ في ١٣ / ٧ / ١٤٤٧

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد